ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

تصنيف العلوم بين المشرق والمغرب خلال العصر الوسيط: نماذج مقارنة

Classification of Sciences between Mashreq and Maghreb during the Middle Ages: Comparative Models

د.سعيد بنحمادة*

Dr.BENHAMADA said

أستاذ التعليم العالي مؤهل في التاريخ الوسيط الإسلامي،

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مكناس، المغرب.

البريد الإلكتروني:saidbenhamada@gmail.com

Abstract: The classification of science constitutes an epistemological and methodological subject in the mental structure of medieval scholars. it assists in understanding the development of scientific knowledge and its methods, as well as clarifying its boundaries and its system of relations. it also reveals the philosophical implications and upon the methodological basis which determines both its roots and branches.

This classification is useful in understanding the network of relations and the scientific systems of knowledge and the range of the correlation between sciences and its slow progression. Consequently the concern in the classification of science between the East and Occident is part of the methodological research in studying the history of sciences for Muslims both in the East and the Occident.

And if most of the classification in the East are the oretically based, they are empirically and realistically oriented in the Occident and they are in line with the civilized development of Moroccan and Andalusian countries.

Key words: The classification of science- medieval scholars- East- Moroccan and Andalusian countries.

مقدمة: يشكل تصنيف العلوم مبحثا منهجيا خاصا في البنية الفكرية لمؤلفي العصر الوسيط؛ إذ يفيد في إدراك تطور المعرفة العلمية ومناهجها، وتوضيح حدودها، وعلاقاتها النسقية، كما يكشف مضمرات فلسفة صاحب التصنيف والتي على أساسها المنهجي يحدد الأصول وفروعها. كما أن تصنيف العلوم يفيد في معرفة الشبكة العلائقية والأنساق العلمية للمعرفة

* تاريخ استقبال المقال:2017 /06/17 تاريخ المراجعة:2017/09/28 تاريخ القبول:2017/10/10

ومدى ترابط العلوم فيما بينها وتدرجها. وبذلك فإن الاهتمام بمبحث تصنيف العلوم هو جزء من مباحث المنهج في دراسة تاريخ العلوم عند المسلمين مشرقا ومغربا.

وبناء على ذلك فإن تصنيف العلوم يتخذ معنيين؛ أحدهما منطقي ويعني تبين الوحدة الكلية أو التشابه من خلال العملية الذهنية التي تستهدف شرح العلاقات بين الأجزاء؛ وثانيهما عملي يهمّ ترتيب الأجناس العلمية وفروعها من حيث العموم والخصوص[1].

وإذا كان تصنيف العلوم وإحصاؤها من قبل مؤلفي العصر الوسيط قد تأثر بما كان سائدا لدى اليونان؛ فلأن الإغريق كانوا سباقين إلى ذلك، زمنيا ومنهجيا، كما أن تصنيفهم اندرج في إطار فلسفي، باعتبار الفلسفة كانت هي أم العلوم و"العلم الكلي" في الحضارة اليونانية؛ فكان من البديهي أن يستمر هذا التأثير، وخاصة المنطق الأرسطي، في تصنيف العلماء المسلمين للعلوم وتبويب المؤلفات، وخاصة "العلوم الدخيلة" حتى تختلف عن العلوم الشرعية[2].

غير أن المسلمين لم يسايروا كليا علماء اليونان في تصنيفهم للعلوم، وإنما خالفوهم في بعض الجوانب التفصيلية والجوهرية، من قبيل جعل المنطق أحد مكونات الفلسفة، وإلغاء بعض العلماء، ومنهم ابن خلدون، للعلوم العملية وتعويضها بالصنائع، حيث سيميزون بين العلم النظري والعلم التطبيقي القائم على الممارسة وليس على النظر العقلي الصرف. كما أن التباين بين المسلمين واليونان سيتجلي أيضا في ما يخص العلوم الشرعية؛ إذ حظيت العلوم النقلية بمباحث خاصة توضح سياقها البنيوي وصلاتها بالعلوم العقلية أو "علوم الأوائل"، بعدما أصبح الفكر الإسلامي منفتحا على الفلسفة اليونانية وغيرها من علوم الحضارات الأخرى.

ولذلك كثرت النماذج التصنيفية، بدءا بأول تصنيف يرجع إلى جابر بن حيان، والذي يعد أقدم محاولة تصنيفية للعلوم لدى المسلمين، و"إحصاء العلوم" للفارابي، و"الفهرست" لابن النديم، و"مفاتيح العلوم" للخوارزمي، و"أبجد العلوم" لصديق حسن خان، و"مفتاح السعادة ومصباح السيادة" لطاشكبرى زاده، و"كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون" لحاجي خليفة، و"كشاف اصطلاحات العلوم" للتهانوي الهندي.

أما بالغرب الإسلامي فنذكر ابن حزم في "الرسائل"، و"طبقات الأمم" لصاعد الأندلسي، وابن خلدون في "المقدمة".

إن هذه الجهود التصنيفية للعلوم تهدف إلى محاولة البحث عن الكليات النسقية التي تؤطر المعرفة من حيث إيجاد العلاقة بين مختلف العلوم، وإرجاع التعدد (الأجناس العلمية) إلى الأصول البنيوية التي أفرزتها (العلم الكلي) باعتباره نظاما شاملا للمعرفة وليست معارف جزئية، إنه مبادئ العلوم وأصولها وأسسها، وفق نسق واحد.

1- **الأساس اليوناني في تصنيف العلوم لدى المسلمين**: لم يكن للمسلمين أن يصنفوا العلوم دون التأثر بالحضارات القديمة، وخاصة الثقافة اليونانية، التي كان لعلمائها إسهام في تصنيف العلوم، ومن أبرزهم أرسطو الذي أقام تقسيما فلسفيا ثلاثيا للعلوم: العلوم النظرية والعلوم العملية والعلوم الشعرية؛ فالأولى تطلب فيها الحقيقة لذاتها دون النظر إلى المنفعة التي هي غاية العلوم العملية (علوم تُعلم ويُعمل بها). أما العلوم الشعرية فموضوعها الإنتاج الفني بمختلف تعبيراته.

وتتفرع العلوم النظرية بدورها إلى ثلاثة أقسام تهتم بالوجود/الموضوع، إما من حيث هو وجود جوهر محسوس متحرك (العلم الطبيعي)، أو فيما يخص مقدار هذا الوجود أي الجوهر المحسوس غير المتحرك (العلم الرياضي)، أو من حيث هو موجود بالإطلاق أي الجوهر غير المحسوس وغير المتحرك (ما بعد الطبيعة: الإلهيات). أما العلوم العملية فتنقسم إلى الأخلاق التي تهتم بسلوك الفرد، والسياسة وتدبير المنزل الذي ينكب على سلوك الجماعة في المدينة، والفن الذي يركز على الإنتاج الخيالي واليدوي.

ويلاحظ أن أرسطو صنف العلم على أساس وجودي، ولذلك لم يدرج علم المنطق في هذا التصنيف، لأن موضوعه، في نظره، ليس الوجود وإنما علم قوانين الفكر، مما جعله يعتبره مدخلا أو آلة للعلم "Organon" وليس علما بذاته.[3]

2- **تصنيف العلوم بالمشرق الإسلامي**: ويمكن التركيز على نماذج، منها:

- "مفاتيح العلوم"للخوارزمي (ت. بعد 232هـ/846م): من إيجابيات تقسيم الخوارزمي للعلوم أنه تجاوز المنظور الفلسفي اليوناني من خلال التمييز بين العلوم العربية الأصيلة ونظيرتها

الأجنبية، بمنهج تراكمي ركز من خلاله على الوصف والإحصاء دون الاكتراث بمراتب العلوم، وشرح مصطلحاتها.

وينقسم كتاب "المفاتيح" إلى مقالتين، خصصت أولاهما لعلوم الشريعة وما يتعلق بها من العلوم العربية كالفقه والكلام والنحو والكتابة والشعر والعَروض والأخبار. وثانيهما تتحدث عن علوم العجم، من اليونانيين وغيرهم، وهي الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل والكيمياء.

ومن ثم نلحظ أن الخوارزمي يدرج الطب والكيمياء ضمن العلوم الفلسفية، كما يتضح التأثير الأرسطي على تصنيف الخوارزمي للعلوم، التي تتسم لديه بالوحدة والتفرع إلى أجناس حسب الموضوع، وأن نموذجه التصنيفي هو مفتوحة، ويجمع بين الفلسفي والبيبليوغرافي.

– "إحصاء العلوم" الفارابي (ت. 339هـ/950م): اعتبر بعض الدارسين أن الفارابي هو أول من اهتم بدراسة تصنيفات العلوم، من خلال إفراد كتاب "إحصاء العلوم" لهذا الغرض[4]؛ فهو "كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه، ولا ذهب إليه أحد مذهبه فيه، ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه"[5].

حدد الفارابي غايته من الكتاب بقوله: "قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علما علما، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها، وأجزاء كل ما له منها أجزاء، وجمل ما في كل واحد من أجزائه"[6]. كاشفا في الوقت ذاته عن الغاية من هذا المنهج التصنيفي في الكتاب؛ إذ به "يقدر الإنسان على أن يقيس بين العلوم، فيعلم أيها الأفضل، وأيها الأنفع، وأيها أتقن وأوثق وأقوى، وأيها أوهن وأوهى وأضعف. وينتفع به أيضا في تكشف من ادعى البصر بعلم من هذه العلوم ولم يكن كذلك، فإنه إذا طولب بالإخبار عن جملة ما فيه، وبإحصاء أجزائه ويجمل ما في كل جزء منه، فلم يطلع بين كذب دعواه وتكشف تمويهه. ويتبين أيضا فيمن يحسن علما منها هل يحسن جميعه، أو بعض أجزائه، وكم مقدار ما يحسنه. وينتفع به المتأدب المتفنن الذي قصده أن يشدو جمل ما في كل علم، ومن أحب التشبه بأهل العلم، ليُظن أنه منهم"[7].

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

وعلى ضوء هذا المقصد الذي حدده الفارابي، تضاربت الآراء حول نوعية كتاب "إحصاء العلوم"، بين من يعتبره موسوعة للعلوم، وبين من يرى أن الفارابي لم يعمل أكثر من تقديم العلوم التي كانت سائدة في القرن 4هـ/10م بكيفية موجزة بعدما نشطت الترجمة في القرنين

السابقين وتعريب "العلوم الدخيلة" في العصر العباسي الثاني إلى جانب "العلوم الأصيلة"، ومن ثم فالإحصاء يقتضي وجود علوم متنوعة وكثيرة. وبين من اعتبر ذلك تبيانا لأشهر العلوم وتصنيفها، ما دام أن الفارابي لم يحص كل المصنفات الرائجة وقتئذ وإنما اقتصر على تعداد العلوم والتعريف بها، ومن ثم فكتابه "الإحصاء" هو تطبيق عملي للنظرية المعرفية لصاحبه في ترتيب العلوم. في حين أدرجه باحثون آخرون في باب التصنيف باعتباره نظاما لترتيب العلوم من حيث العموم والخصوص، أكثر منه إحصاء[8].

وقد صنف الفارابي العلوم إلى خمسة أقسام: علم اللسان، وعلم المنطق، وعلوم التعاليم (الرياضيات والطبيعيات)، والعلم الطبيعي والعلم الإلهي، والعلم المدني وعلم الفقه وعلم الكلام، كما يتضح من الجدول الآتي:

العلم	تعريفه	فروعه	صص[9]
علم اللسان	يدرس ألفاظ اللغة وقوافيها، والألفاظ تكون إما مفردة أو مركبة، والمفردة تدل إما على أعلام أو أجناس أو أنواع (أسماء، أفعال، أدوات).	- علم المعاجم: يهتم بالألفاظ المفردة. - علم الألفاظ المركبة: الشعر، والنثر، والخطابة. - علم فقه اللغة: يهتم بقوانين الألفاظ. - علم قوانين الألفاظ المركبة: الصرف والنحو. - علم قوانين الكتابة: الخط. - علم قوانين تصحيح القراءة. - علم قوانين تصحيح الأشعار: العروض.	صص:17-25.
علم المنطق	موضوع المنطق هو الأفكار والألفاظ من حيث دلالتها على تلك الأفكار؛ فـ"صناعة المنطق تعطي جملة القوانين التي شأنها أن تقوم العقل وتسدد الإنسان نحو طريق الصواب، ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات، والقوانين التي تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل الغلط في المعقولات. والقوانين	- المقولات. - العبارة أو القضية. - القياس. - البرهان. - الجدل. - السفسطة. - الخطابة	صص:27-48.

عصور الجديدة- المجلد7- العدد 27 صيف- خريف (أكتوبر) 1439هـ/2017- 2018م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

	التي يمتحن بها في المعقولات أشياء لا يمكن أن يكون قد غلط فيها غالط".	- الشعر.	
علم التعاليم		- علم العدد. - علم الهندسية. - علم المناظر. - علم النجوم. - علم الموسيقى. - علم الحيل. - علم الأثقال.	49- 65.
العلم الطبيعي وعلم الإلهي	العلم الطبيعي: "ينظر في الأجسام الطبيعية وفي الأعراض التي قوامها في هذه الأجسام، ويعرّف الأشياء التي عنها والتي بها والتي لها توجد هذه الأجسام والأعراض التي قوامها فيها".	أ- العلم الطبيعي: يدرس مبادئ الأجسام وأعراضها، والأسطقسات، والكون والفساد، ومبادئ الأعراض والانفعالات، والأجسام المركبة، والمشترك بين الأجسام المركبة، وأنواع النباتات، وأنواع الحيوانات. ب- العلم الإلهي: يدرس الموجودات، ومبادئ البراهين في العلوم النظرية والجزئية، والموجودات التي ليست بأجسام ولا في الأجسام.	67- 77.
العلم المدني وعلم الفقه وعلم الكلام	- العلم المدني: "يفحص عن أصناف الأفعال والسنن الإرادية، وعن الملكات والأخلاق والسجايا والشيم التي عنها تكون الأفعال والسنن، والغايات التي لأجلها تفعل، وكيف ينبغي أن تكون موجودة في الإنسان وكيف الوجه في ترتيبها فيه على النحو الذي ينبغي أن يكون وجودها في، والوجه في حفظها". - علم الفقه: "صناعة... بها يقتدر الإنسان على أن يستنبط تقدير شيء مما لم يصرح واضع الشريعة بتحديده على الأشياء التي صرح فيها بالتحديد والتقدير". - علم الكلام: "صناعة... يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها من الأقاويل".	- علم الأخلاق والسياسة. - يدرس الآراء والأفعال. - يدرس هو الآخر الآراء والأفعال. والفرق بين علم الفقه وعلم الكلام أن الأول يستنبط من الآراء والأفعال الواردة في الشرع الأشياء اللازمة عنها. أما الثاني فينصر أصول	79- 92.

ردمد 1636–2170 ISSN EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– 1156 Depot Légal

		الشريعة من غير أن يستنبط منها أشياء أخرى.	

جدول رقم 1: تصنيف العلوم عند الفارابي

ما يلاحظ على هذا التصنيف لدى الفارابي أنه قائم على أسس فلسفية، وخاصة التصنيف الأرسطي العلوم، غير أن الفارابي لم يتماهى كليا مع أرسطو، وإنما اختلف معه من حيث اعتبار المنطق علما قائما، على خلاف أرسطو الذي أشرنا قبل أنه لم يجعله سوى آلة للعلم.

ومما يثير الانتباه كذلك هو الحيز الذي خصصه الفارابي لعلم المنطق وفصله عن الفلسفة، مما يفهم معه تأثر تصنيف الفارابي بالواقع الثقافي زمن العباسيين خلال القرن 4هـ/10م، دفاعا منه عن هذا العلم ضد مهاجميه، على إثر المناظرة التي عرفتها بغداد سنة 320هـ/932م في حضرة الفضل بن جعفر بن الفرات، وزير الخليفة العباسي المقتدر، بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى بن يونس شيخ الفارابي، انتصر فيها السيرافي النحويّ على ابن يونس الفيلسوف[10]. ولذلك نجد الفارابي يوازن بين المنطق والنحو ويعلي من قيمة الأول على الثاني لأنه، في نظره، يتضمن قواعد كلية تتوقف عليها كل العلوم حتى تقي المتعلم من الوقوع في الأخطاء، وهو ما يفسر تقديمه للمنطق على غيره من العلوم؛ "فالمنطق يعطي القوانين ... جميعا، وهو يشارك النحو بعض المشاركة بما يعطي من قوانين الألفاظ، ويفارقه في أن علم النحو إنما يعطي قوانين تخص ألفاظ أمة ما، وعلم المنطق يعطي قوانين مشتركة تعم ألفاظ الأمم كلها"[11]. إضافة إلى أن الفارابي أدرج في علم المنطق أقساما لم تكن عند أرسطو، وهي الخطابة والشعر.

واللافت للانتباه أيضا أن الفارابي يعتبر علمي الفقه والكلام علمان زائدان على الفلسفة ومتأخران عنها، رغم تبعيتهما لها، من حيث إنهما يندرجان في العلوم العملية، وهذا مما أوخذ عليه، فإذا كانت العلاقة قائمة بين علم الكلام والفلسفة من خلال استفادة علماء أصول الدين من المنهج التفكير لدى الفلاسفة؛ فإن علم الفقه علم أصيل لدى المسلمين، وهو ما رأى فيه البعض أن تصنيف الفارابي تصنيف مصطنع، مع الاعتراف في الوقت نفسه أنه محاولة للتوفيق بين الدين والفلسفة[12].

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

ويعتبر "إحصاء العلوم" استمرارا لما قام به الفارابي في "تحصيل السعادة" و"رسالة التنبيه على سبيل السعادة"، حيث يذكر في هذين الكتابين ما يكون سببا للسعادة، وخاصة المعرفة العقلية الفلسفية التي توفر أسمى أنواع اللذة. ففي "التحصيل" يتحدث الفارابي عن "الفضائل النظرية"، و"الفضائل الخلقية"، و"القوة الفكرية"، والفلسفة التي يعتبرها أول العلوم وأتمها؛ فهي معرفة معقولة برهانية ويقينية، بينما العلوم الأخرى معرفة إقناعية أو تخيلية[13]. أما في "رسالة التنبيه" فيصنف المدركات والصنائع والعلوم بالقول: "إن جودة التمييز هي التي بها نحوز وتحصل لنا معارف جميع الأشياء التي للإنسان علمها. والأشياء التي للإنسان علمها صنفان: صنف شأنه أن يُعلم، وليس شأنه أن يفعله الإنسان، لكن إنما يُعلم فقط، ...وصنف شأنه أن يُعلم ويفعل، ...وما شأنه أن يُعلم ويُعمل فكماله أن يُعلم. وعلم هذه الأشياء متى حصل ولم يردف بالعمل كان العلم باطلا لا جدوى له، وما شأنه أن يُعلم ولم يكن شأنه أن يعمله الإنسان فإن كماله أن يعلم فقط"[14].

لقد ارتبط تصنيف العلوم عند الفارابي بغاية أخلاقية، وهي تحقيق السعادة من اكتساب الفلسفة وتأمل موضوعاتها الإلهية من جهة، والممارسة التي تحققها العلوم العملية من جهة أخرى. فالسعادة تتحقق بالجمال "الذي يتم بعلوم الحكمة: المعرفة الخالصة التي تطلب لذاتها" والمنفعة "التي تحصل بالعلوم العملية"[15].

إن ما يميز تصنيف الفارابي للعلوم أنه ذو طبيعة فلسفية، مما جعله مرجعا لغيره من التصنيفات، بدءا بإخوان الصفا، و"إرشاد القاصد في أسنى المقاصد" لشمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري (ت. 749هـ/1348م)، و"مقدمة" ابن خلدون، و"مفتاح السعادة" لطاشكبرى زاده، و"كشف الظنون" لحاجي خليفة، و"أبجد العلوم" لصديق حسن خان، و"اصطلاحات الفنون" للتهانوي[16].

– "الفهرست" لابن النديم (ت. 385هـ/995م): أحصى ابن النديم جميع العلوم الرائجة في عصره وعرّفها تعريفا دقيقا وذكر المصنفات التي ألفت في كل علم، وهو ما يورده في ديباجة الكتاب التي أفصح فيها عن مقصده منه؛ فهو "فهرست كتب جميع الأمم، من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم، وأخبار مصنيفها، وطبقات

مؤلفيها، وأنسابهم، وتاريخ مواليدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم، ومناقبهم، ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة (987م)"[17].

وبذلك فإن كتاب الفهرست هو تصنيف بيبلوغرافي استقرائي لما ألف إلى حدود عصر ابن النديم، وليس تقسيما فلسفيا؛ إذ يتضمن "عشر مقالات" تتمحور حول الـ"فنون" وما ألف فيها، وتهمّ النحو واللغة، والأخبار والآداب والسير والأنساب، والشعر، وعلم الكلام، والفقه والحديث، والفلسفة والعلوم القديمة، والأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعبذة، والمذاهب والاعتقادات، والكيمياء.

وإذا كانت هذه ملامح بعض تصنيفات العلوم بالمشرق الإسلامي، وما اتسمت به من تباين في المرجعيات والأنواع؛ فماذا كان يقابلها ببلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط؟

3- تصنيف العلوم عند علماء الغرب الإسلامي: أفضى تنوع المعارف منذ القرن 2هـ/8م إلى ميلاد صنف من المؤلفات تنحو نحو تصنيف العلوم، وتطورت خلال القرن الموالي لتشتد في القرن 4هـ/10م. وقد انطلق هذا الجنس التصنيفي بالغرب الإسلامي، وعلى شاكلة المشرق، من النموذج اليوناني، ممثلا في أفلاطون وأرسطوطاليس، مما جعل مهمة تصنيف العلوم من مهام المؤلفين وخاصة الفلاسفة منهم؛ لأن مزاولتها تعني دربة فكرية على رؤية الأصول والفروع، وإبراز للقدرة على التصور الواضح لأنواع المقولات[18]. بل إن ذلك النموذج وظف أيضا من قبل الفقهاء خدمة للأغراض الدينية؛ كما هو الحال لدى ابن عبد البر (ت. 463هـ/1071م)، الذي يرى أن "العلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة: علم أعلى، وعلم أسفل، وعلم أوسط؛ فالعلم الأعلى عندهم علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزل الله في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصا، والعلم الأوسط هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره، ويستدل عليه بجنسه ونوعه كعلم الطب والهندسة، والعلم الأسفل هو إحكام الصناعات وضروب الأعمال مثل السباحة والفروسية والزي والتزويق والخط وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب أو يأتي عليها وصف، وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها"[19].

ورغم البعد الفقهي لهذا التصنيف لدى ابن عبد البر؛ فإنه استحضر أيضا أثر الفلسفة في مراتب العلوم، بفعل التحولات الفكرية التي همّت العلوم الفلسفية بالأندلس خلال فترة ملوك الطوائف، والتي أعادت للقول الفلسفي مكانته ضمن الحياة الفكرية[20]؛ ففي تقدير ابن عبد البر أن ذلك "التقسيم في العلوم كذلك هو عند أهل الفلسفة، إلا أن العلم الأعلى عندهم هو علم القياس في العلوم العلوية التي ترتفع عن الطبيعة والفلك، مثل الكلام في حدوث العالم وزمانه والتشبيه ونفيه، وأمور لا يدرك شيء منها بالمشاهدة ولا بالحواس"[21].

وقد شجع المناخ الثقافي للغرب الإسلامي على تطور هذا المبحث التصنيفي للعلوم؛ من قبيل ترتيب العلوم على أساس وظيفي مرتبط بالدنيا والآخرة، يجعل الشريعة مركز المعرفة الضرورية، دون أي اعتبار شمولي، مما جعل الطب يندرج ضمن العلوم الاختيارية، أما غيره فهي علوم مهملة؛ فمن بين التفريعات السائدة أن "العلوم ثلاثة: علم دنياوي وأخراوي، وعلم دنياوي، وعلم لا للدنيا ولا للآخرة؛ فالعلم الذي للدنيا والآخرة علم القرآن والسُّنَن والفقه فيهما، والعلم الذي للدنيا علم الطب والتنجيم، والعلم الذي لا للدنيا ولا للآخرة علم الشعر والشغل به"[22].

غير أن هذا التقسيم الثلاثي سيتراجع لحساب تصنيف ثنائي للعلوم، يقسم هذه الأخيرة إما إلى علوم الدين وعلوم الدنيا، أو إلى علوم المسلمين وعلوم الأوائل، أو العلوم النقلية والعلوم العقلية، وهو ترتيب مرده إلى تزايد حركة الترجمة في القرن 2هـ/8م[23].

- تصنيف العلوم لدى ابن حزم (ت. 456هـ/1046م): عمد ابن حزم إلى تتبع العلوم السائدة بالأندلس خلال القرن 5هـ/11م، حاصرا إياها في اثني عشر علما، وهي علم القرآن، وعلم الحديث، وعلم المذاهب، وعلم الفتيا، وعلم المنطق، وعلم النحو، وعلم اللغة، وعلم الشعر، وعلم الخبر، وعلم الطب، وعلم العدد والهندسة، وعلم النجوم[24].

والظاهر أن ابن حزم ذكر علمين يكادان يكونان جديدين؛ وهما علم المذاهب وعلم الفتيا. فأما علم المذاهب "فما كان منها خارجا عن الملة الإسلامية فإلى القرآن وإلى مقدمات راجعة إلى أوائل العقل والحس"[25]. ويقصد به علم الكلام بحسب إشارة ابن حزم في موضع آخر لما سماه بـ"علم النظر في الآراء والديانات والأهواء والمقالات"[26]. وأما علم الفتيا فينقسم

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

إلى "مقدمات مأخوذة من القرآن والحديث اللذين صحا بالبراهين، وإلى إجماع العلماء الأفاضل الذي صح بالقرآن"[27] مع تشديده على علمي العبارة أو تعبير الرؤيا، وعلم الخبر[28].

والمتأمل لهذا التصنيف تطالعه ملحوظات، منها أن ابن حزم وضع علم المنطق ضمن العلوم الإسلامية، حتى يؤكد أهميته باعتباره علما مشتركا بين جميع العلوم وفي كل الحضارات، كما أدمج العلوم الفلسفية، مثل حدوث العالم والخلاء والملاء، ضمن علم المذاهب. كما لم يعط للعلوم الطبيعية، ما عدا علم الطب، مكانة هاما، مخالفا بذلك التصنيف الفلسفي السائد، مُؤْثرا التأريخ للعلوم بناء على الدائر بين الناس، "وهذه الرتبة هي غير الرتبة التي كانت عند المتقدمين، ولكن إنما [نتكلم] على ما ينتفع به الناس في كل زمان مما يتوصلون به إلى مطلوبهم من إدراك العلوم"[29].

واللافت أن مراتب العلوم عند حزم حكمتها رؤيته الفلسفية، ومن ثم فهو ليس تصنيفا تقنيا للمعارف، بل تصور شمولي يحكمه موقف فكري واضح ومفارق لما كان لدى اليونانيين، بل إن ابن حزم شدد على نسقية العلوم وترابطها[30].

ولم يكن تصنيف العلوم ليغفل البعد التعليمي، لذا نجد ابن حزم يوضح مراتب العلوم حسب الأولويات التربوية؛ وهو ما يفهم من رسالته في "مراتب العلوم"، التي دعا فيها إلى التدرج، وتلقين الحد الأدنى للطالب، ملحا على أهمية سبعة من العلوم بشكل خاص، ومن بينها علم الطب، الذي يندرج في العلوم التي تتفق فيها الأمم، إلى جانب الفلسفة وعلم النجوم وعلم العدد، وهي "علوم الأوائل" كما تسمى[31]؛ فمن مهام الطالب أن "ينظر في الطبيعيات، وعوارض الجو، وتركيب العناصر، وفي الحيوان والنبات والمعادن، ويقرأ كتب التشريح ليقف على محكم الصنعة وتأثير الصانع وتأليف الأعضاء واختيار المدبر وحكمته وقدرته"[32].

– تاريخ العلوم في "طبقات الأمم" لصاعد الأندلسي (ت. 462هـ/1069م): يعد كتاب "طبقات الأمم" لأبي القاسم صاعد التغلبي مصدرا مرجعيا لتاريخ العلوم بالأندلس؛ فهو كتاب يمزج بين علم الفهرسة كما صاغه ابن النديم وفن تقسيم الشعوب، مما يجعله يزاوج بين التأريخ الاجتماعي والثقافي، ويؤكد الاستمرارية والتراكم الحضاريين في تطور العلوم[33].

اعتمد صاعد الأندلسي على معيار اللغة، كما الأخلاق والصور، في تصنيف الأمم السبعة التي تحدث عنها، والتي انقسمت، في نظره، إلى فئتين من حيث الاهتمام بالعلوم؛ إحداهما اهتمت بالعلوم لتطوير حضارتها، في مقابل عدم انكباب الصنف الثاني بذلك[34]. مفسرا الأمر بالعوامل البيئية؛ فالأمم التي لم تعن بالعلوم "هم أشبه بالبهائم منهم بالناس، لأن من كان منهم موغلا في بلاد الشام ما بين آخر الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمور في الشمال، فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد هواءهم وكثّف جوّهم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجة، فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم، فعدموا بهذا دقة الأفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العيّ والغباوة، ...ومن اتصل بهم ومن كان منهم ساكنا قريبا من خط معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمر في الجنوب، لطول مقاربة الشمس رؤوسهم أسخن هواءهم وسخن جوّهم فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاقهم محترقة، فاسودت ألوانهم وتغلغلت شعورهم، فعدموا بهذا رجاحة الأحلام وثبوت البصائر، وغلب عليهم الطيش وفشا فيهم النوك والجهل"[35].

لقد جعل صاعد الأندلسي من العلوم مؤشرا لقياس التطور الحضاري في ارتباط بالعامل البيئي، وهو ما أقام عليه مقاصده لتتبع تاريخ العلم والعلماء عبر جغرافية الحضارات، مبينا مظاهر تأثيرها على العلوم الإسلامية، ومنها العلوم بالأندلس. موضحا في الوقت ذاته بعض خصائص الحركة الفكرية، من قبيل غلبة البعد التجريبي لعلم الفلك لدى العرب على حساب التأمل النظري، استجابة للحاجة الإدارية والحربية والدينية. فتعاطي الحميريين لعلم النجوم كان وظيفيا، ذلك بأن "ملوك حمير لم يكونوا يستعملون من قوادهم ولا يصرفون من كفاتهم إلا من عرفوا مولده ووجدوا أدلته من البروج والكواكب موافقة لأدلتهم ومشاكلة لها. وأنهم كانوا إذا أرادوا غزو أمة من الأمم تخيروا لذلك الأوقات السعيدة والطوالع المشاكلة لمواليدهم والملائمة لنصب دولتهم، ومكثوا في ارتيادها الأزمان الطويلة حتى تمكنهم على أخبارهم، فكانوا يلقون بها حيث شاؤوا من المراتب العلية والمنازل الرفيعة من الظفر بالأعداء وبعد الصيت في البلاد"[36]. كما أن المقاصد الدينية هي التي جعلت الوثنيين العرب قبل الإسلام يتشبهون بالصابئة في "تعظيم الكواكب والأصنام في الهياكل"[37].

عصور الجديدة- المجلد7– العدد 27 صيف– خريف (أكتوبر) 1439هـ/2017- 2018م
ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

وبذلك تتجلى الدوافع التجريبية للعلوم الطبيعية لدى العرب، من خلال توظيفها في المعاش اليومي، لا الاقتصار على النظر العقلي في تلك المعارف، بفعل الجغرافيا التاريخية التي حتمت ضرورة وضع تقويم زمني يراعي محددات المناخ، وتقلبات الطقس؛ فقد كانت لهم "معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواع الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم لمعرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق، ولا على سبيل التدرب في العلوم"[38].

والربط بين العلوم والمعاش فيه إشارة مضمرة إلى منهجية صاعد الأندلسي في التأريخ للعلوم العربية؛ فهو يضعها في سياق نسقي يعطي للبيئة الجغرافية دورا في الثقافة في العصر الوسيط، ويحوّل الكتابة التاريخية من سرد للأحداث إلى التركيز على تفسير الظواهر، ويجعل العلوم فاعلا ومنفعلا بالعوامل الجغرافية والاجتماعية والسياسية، مما يفهم معه كيف تبأوت اللغة والشريعة والطب صدارة الاهتمام حينئذ[39].

شكلت هذه الرؤية الأساس الذي اعتمده صاعد الأندلسي في تتبع تاريخ العلوم بالأندلس إلى حدود القرن 5هـ/11م؛ فإلى حدود الفتح الإسلامي لم تكن من العلوم إلا بعض الطلسمات التي سادت، وظلت العلوم النقلية هي الغالبة إلى عهد الحكم الأموي بقرطبة، حيث ازداد شأن الفلسفة بإيعاز من الخلفاء؛ "فتحرك ذوو الفهم والهمم منهم بطلب العلوم وتنبهوا لإثارة الحقائق"[40]. مثلما كان للبيئة دور في التراكم العلمي الذي حققته العلوم بالأندلس كما يفهم من الإطار الجغرافي والتاريخي الذي استهل به صاعد حديثه عن تاريخ العلوم بالأندلس قبل التفصيل في التصانيف العلمية في هذا الشأن، حيث عرّج على الديانة السائدة قبل الفتح، وحدود الأندلس، والمدن العواصم[41].

والبعد التأريخي لدى صاعد هو الذي حدا به إلى تقسيم بنية التأليف لدى علماء الأندلس إلى مراحل، مع التركيز على العلوم العقلية، ونسقية العلوم وارتباطها بالفلسفة. مثلما أبرز أثر الخلفاء الأمويين وملوك الطوائف في ذلك، ودور المجتمع في تاريخ الحركة العلمية بالأندلس. وهكذا قسم المراحل التاريخية إلى أربعة، وهي كما يلي:

أ- المرحلة الأولى ما بين (250- 350هـ/864- 961م): وهي المرحلة التي انتهت بانتهاء حكم الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، وفيها "تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم، ولم يزالوا يظهرون ظهورا غير شائع في قريب وسط المائة الرابعة"[42].

ب- المرحلة الثانية (350- 366هـ/961- 967م)، تبدأ هذه المرحلة بتولية الحَكَم المستنصر، الذي تابع المشروع الثقافي بالأندلس زمن والده عبد الرحمن الناصر، الذي في عهده "تتابعت الخيرات، ...ودخلت الكتب الطبية من المشرق، وجميع العلوم، وقامت الهمم، وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين"[43]. أما خلفه المستنصر فكان "مشغوفا بالعلوم، حريصا على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان، ونفق ذلك لديه؛ فحُملت من كل جهة إليه، والملك سوق، ما نفق فيها جلب إليها، حتى غصت بها بيوته، وضاقت عنها خزائنه، ...[لأنه] كان من أهل الدين والعلم، راغبا في جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم، باحثا عن الأنساب، حريصا على تأليف قبائل العرب وإلحاق من درس نسبه أو جهله بقبيلته التي هو منها، مستجلبا للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء، ويسمع منهم ويروي عنهم، ...وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق للبحث عنها"[44]. بل إن مدونات الحكم المستنصر شكلت أحد مصادر تاريخ الطب بالأندلس[45].

ومن ثم نعتبر أن هذه المرحلة هي فترة تأسيسية في بلورة تاريخ العلوم بالأندلس، لكونها استفادت من خصوصيات هذا العهد، الذي استند إلى الرحلة والسياسة. فأما الرحلة فقد حملت الأندلسيين على شد الرحال إلى المشرق الإسلامي. وأما السياسة فتكمن في توظيف الخليفتين الناصر والمستنصر لعلاقاتهما الديبلوماسية لجلب الكتب، وخاصة السفارة البيزنطية إلى قرطبة، التي أدخلت كتابي الحشائش لديسقوريدس، وكتاب هروشيوش. كما أن الدولة في هذه الفترة جمعت نخبة من العلماء لإغناء الحياة العلمية بالأندلس.

لقد ركنت العلوم الأندلسية في هذه المرحلة إلى الفكر المشرقي الذي شكل البوابة للنهل من الثقافات القديمة، وساعد بذلك على رسم ملامح التصنيف لدى الأندلسيين.

ج- المرحلة الثالثة: ستعرف العلوم الطبيعية والتجريبية، ومعها الفلسفة في الفترة العامرية، منعطفا بعد وفاة الحكم المستنصر وتولية ابنه هشام المؤيد، الذي استبد بالملك في عهده حاجبه المنصور بن أبي عامر؛ فطبعت فترة حكمه بالتضييق على كتب الفلسفة، مما أثر سلبا على بنية التأليف؛ فقد عمد الخليفة الجديد إلى "خزائن أبيه الحَكَم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها، وأبرز ما فيها من ضروب التواليف بمحضر خواصه من أهل العلم بالدين، وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في المنطق وعلوم النجوم وغير ذلك، حاش كتب الطب والحساب؛ فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو والأشعار والأخبار والطب والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم المباحة بمذاهب الأندلس، إلا ما أفلت منها في أنها الكتب، وذلك أقلها؛ فأمر بإحراقها وإفسادها؛ فأحرق بعضها، وطرح بعضها في آبار القصر، وهيّل عليها التراب والحجارة، وغيرت بضروب من التغايير"[46].

إن هذا التحول في موقف الدولة من "علوم الأوائل" بقدر ما يؤشر لتحول ثقافي في تاريخ الأندلس والذي طبع بـ"محنة العلوم العقلية"؛ فإنه يثير التساؤل عن خلفياته، بعدما كانت تلك المؤلفات قد نفقت أسواقها في عهد المستنصر.

تقدم مصادر المرحلة جوابا عن ذلك بإيعازها الأمر إلى موقف فقهي مرتبط بنظرة المجتمع إلى الفلسفة؛ فقد أقدم هشام المؤيد على ذلك "تحببا إلى عوام الأندلس وتقبيما لمذهب الخليفة الحكم عندهم؛ إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم، مذمومة بألسنة رؤوسهم، وكان كل من قرأها متهما عندهم بالخروج عن الملة، مظنونا به بالإلحاد في الشريعة؛ فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك، وخمدت نفوسهم، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم"[47]. وقد جاء رأي ابن حزم ليؤكد هذه الشهادة حول التّمثّل السلبي لغالبية المجتمع حول العلوم الفلسفية، بدعوى مخالفتها للشريعة[48].

غير أن محاولة اغتيال الفلسفة هذه لم تنجح كلية، بل كتم المهتمون بالحكمة أمرهم؛ "إذ لم يزل أولو النباهة منذ ذلك يكتمون لما يعرفونه منها، ويظهرون ما يجوز لهم منه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك، إلى أن انقرضت دولة بني أمية من الأندلس"[49].

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

د- المرحلة الرابعة: فترة ملوك الطوائف: لقد تعافى البعد الفلسفي في بنية التأليف الأندلسية مع فترة ملوك الطوائف، والتي تعد إعادة تدبير مجالي وسياسي وثقافي، نقل الأندلس من المركزية السياسية والإدارية إلى لامركزية مجالية، استقلت على إثرها الإمارات الطائفية، ما جعل ملوكها يضاهي بعضهم بعضها في جلب العلماء وحثهم على التأليف، لكون العلوم تحولت إلى رأسمال رمزي لأولئك الرؤساء، وآلية لخدمة مشروعية حكمهم، وهو ما أفاد في إعادة إنتاج القول الفلسفي في المدن الأندلسية، ورجع الفلاسفة إلى الظهور من جديد بعدما تهيأ لهم إطار الاشتغال؛ إذ "افترق الملك على جماعة من المخربين عليهم في صدر المائة الخامسة من الهجرة، وصاروا طوائف، واقتعد كل واحد منهم قاعدة من أمهات البلاد بالأندلس؛ فانشغل بهم ملوك الحاضرة العظمى عن امتحان الناس والتعقب عليهم، واضطرتهم الفتنة إلى بيع ما كان بقي بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع؛ فبيع بأوكس ثمن وأتفه قيمة، وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس، ووجدوا في خلالها أغلاقا من العلوم القديمة كانت أفلتت من أيدي الممتحنين لخزانة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر، وأظهر أيضا كل من كان عنده من الرغبة بشيء منها ما كان لديه، فلم تزل الرغبة ترتفع من حينئذ في طلب العلم القديم شيئا فشيئا، وقواعد الطوائف تتبصر قليلا قليلا إلى وقتنا؛ فالحال، نحمد الله تعالى، أفضل ما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم والإعراض عن تحجير طلبها"[50]، حيث انبرى بعض الأندلسيين للانكباب على الخطاب الفلسفي؛ إذ وجد في النصف الثاني من القرن 5هـ/11م "أفراد من الأحداث منتدبون بعلم الفلسفة ذوو أفهام صحيحة رفيعة، قد أحرزوا من أجزائها"[51].

إلا أن حركة التأليف خلال الفترة المذكورة ستتأثر هذه المرة بالظروف العسكرية، سواء بين المسلمين والممالك المسيحية، أو في إطار الصراع بين ملوك الطوائف أنفسهم؛ إذ إن "زهد الملوك في هذه العلوم وغيرها، واشتغال الخواطر بما دهم الثغور، وتغلب المشركين عاما فعاما على أطرافها، وضعف أهلها عن مدافعتهم عنها، قلل طلاب العلم وصيّرهم أفرادا بالأندلس"[52].

واللافت أن تتبع صاعد لتاريخ العلوم بالأندلس ينطوي على تصنيف غير مباشر لتلك العلوم، حيث يقسهما إلى "العلم الرياضي"، و"الفلسفة"، و"صناعة المنطق"، و"العلم الطبيعي والعلم الإلهي"، و"صناعة الطب"، و"صناعة أحكام النجوم"[53]. ففي الفلسفة ظهر بالأندلس خلال القرن 5هـ/11م "أفراد من الأحداث يتميزون بطلب الفلسفة ذوو أفهام صحيحة، وهمم رفيعة قد أحرزوا من أجزائها حظا وافرا"[54]. وكانت أكثر حظا من غيرها من العلوم. وفي "العلم الطبيعي والعلم الإلهي لم يعن أحد من أهل الأندلس بهما كثير عناية ...وأما صناعة الطب فلم يكن بالأندلس من استوعبها ولا من يلحق بأحد من المتقدمين، وإنما كان غرض أكثرهم من علم الطب قراءة الكنانيش المؤلفة في فروعه فقط دون الكتب المؤلفة في أصوله مثل كتب أبقراط وجالينوس، ليستعملوا بذلك ثمرة الصناعة ويستفيدوا به خدمة الملوك بالطب في أقرب مدة إلا أفرادا منهم رغبوا عن هذا الغرض، وطلبوا الصناعة لذاتها وقرءوا كتبها على مراتبها"[55]. وعلى عكس الطب فإن "صناعة أحكام النجوم لم تزل نافقة بالأندلس قديما وحديثا، واشتهر بتقليدها جماعة في كل عصر إلى عصرنا هذا (القرن 5هـ/11م)"[56].

لقد عمد صاعد الأندلسي إلى إجراء رصد للواقع العلمي للمرحلة أكثر من التنصيف النظري للمعرفة؛ فهو مناسب لمنهجه في تتبع العلماء الذي برزوا في الأجناس العلمية بالأندلس إلى حدود القرن 5هـ/11م؛ فهو ليس تصنيفا وإنما تأريخ لحركة التأليف يقوم على تجنيس العلوم وترتيب المؤلفين حسب التتلمذ والتمكن، والرصد البيبليوغرافي للكتب، لإبراز معالم المدارسة العلمية بالأندلس وأعلامها، وهو ما يفيد في استنباط نسقية العلوم، واستكناه مظاهر النقد والتصحيح والتجريب لدى العلماء الأندلسيين.

– اجتماعية العلوم عند ابن خلدون (ت. 808هـ/1405م): تنقسم العلوم في تصنيف ابن خلدون إلى فرعين، أحدهما طبيعي يهتدي إليه الإنسان بفكره، وثانيهما نقلي يستمد من واضعه.

ويقصد بالصنف الأول "العلوم الحكمية الفلسفية" المكتسبة بالمدارك الفكرية التي تمكّن من معرفة موضوعاتها وبراهينها، والتمييز بينها. أما الصنف الثاني فهي "العلوم النقلية الوضعية"

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

التي لا مجال فيها للعقل إلا من حيث إلحاق مسائلها الفرعية أو الجزئية بالأصول أو الأحكام الكلية؛ فهي "مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي"[57]. وهي مبينة في الجدول الآتي:

العلم	فروعه
علوم اللسان	علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البيان، وعلم الأدب.
علوم القرآن	القراءات، فن الرسم، التفسير.
علوم الحديث	علم الناسخ والمنسوخ، علم الأسانيد، علم غريب الحديث، علم تصريف القوانين، علم مصطلح الحديث.
علوم الفقه	علم أصول الفقه، علم الفقه.
علم التوحيد- علم الكلام- علم التصوف- علم تعبير الرؤيا	

جدول رقم 2: تصنيف العلوم النقلية عند ابن خلدون

والربط بين الفروع والكليات لا يتم آليا وإنما بمنهج عقلي يستمد إلى التثبت من الأصول، وربط الجزئيات بها من خلال القياس. وهو بذلك يعطي للأسس النظرية مكانة على حساب الوقائع التجريبية المعتمدة على الاستقراء في التعامل مع العلوم النقلية[58]. بدليل أن صاحب "المقدمة"، وهو يتحدث عن العلوم الواقعة في القرن 8هـ/14م، يجعل هذه العلوم مستمدة من الكتاب والسنة، ويضيف إليها علوما مساعدة، وأخرى مكملة، كعلوم اللسان العربي من لغة ونحو وبيان وأدب[59].

لم يكن تصنيف ابن خلدون للعلوم النقلية فلسفيا ولا بيبليوغرافيا، وإنما ربط بين العلم وطبائع العمران والدورة الحضارية؛ إذ شخص الواقع التاريخي للمعرفة العلمية بالغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط، وشدد على كساد هذه العلوم ببلاد المغرب والأندلس مقارنة وقتئذ بسبب تناقص العمران وتراجع التعليم، عكس ما كان عليه حال الحضارة وتدريس العلوم بالمشرق الإسلامي[60].

أما العلوم العقلية لديه، أو "علوم الفلسفة والحكمة" كما يسميها، فلا تتسم بالخصوصية من حيث تعلقها بأمة دون غيرها، وإنما هي "غير مختصة بملة، بل يوجه النظر فيها

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

لأهل الملل كلها، ويستوون في مداركها ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة"[61]. وتتفرع إلى أربعة أقسام[62]:

العلم	فروعه
علم المنطق: "يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة. وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها، ليقف على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره".	
العلم الطبيعي: "النظر... إما في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك".	- علم الطب. - علم الفلاحة.
العلم الإلهي: "النظر في الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات".	
علم التعاليم: "الناظر في المقادير".	-علم الهندسة: الهندسة العامة، وهندسة الأشكال، والمساحة، والمناظر. - علم الحساب "الأرثماطيقي": براهين الحساب، وصناعة الحساب، والجبر، والمعاملات، وعلم الفرائض. - علم الموسيقى. - علم الهيئة: علم الأزياج، وعلم الأحكام النجومية.

جدول رقم 3: تصنيف العلوم العقلية عند ابن خلدون

يعتبر ابن خلدون هذه الأصول الأربعة للعلوم الفلسفية، قبل أن يعود ليحصرها في سبعة أقسام مرتبة غير الترتيب الأول، حيث أعطى للمنطق مكانة متقدمة على غيره، ثم الفروع الأربعة لعلم التعاليم (علم العدد، والهندسة، والهيئة، والموسيقى)، وتليها الطبيعيات، ثم الإلهيات. وبعد ذلك فصل في كل علم من هذه العلوم؛ فسرد من الطبيعيات علم الطب، ومن علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات، وذكر من الهيئة الأزياج ومن فروعه علم الأحكام النجومية[63].

يبدو أن التصنيف السباعي للعلوم من قبل ابن خلدون يستند إلى بعدين متلازمين، أولهما حديثه عن الأركان السبعة في الفلسفة، وثانيهما أن هذا التصنيف السباعي للعلوم يشابه ما كان سائدا في أوربا في العصر الوسيط والمسمى بالفنون السبعة[64].

كما يلاحظ أن التصنيف الخلدوني للعلوم فيه تمييز بين العلوم والصنائع؛ فإذا كانت العلوم هي معارف عقلية نظرية، فإن الصنائع هي ممارسات تجريبية قد تعتمد العلوم. لكن هذا التقدير لا يصمد أمام إدراج ابن خلدون الطبَّ والفلاحة ضمن باب الصنائع بعدما كان قد صنفهما ضمن العلوم وحديثه عن "علم الطب" دون التمييز بيه وبين صناعة الطب، إلى حد أن تعريفيه للطب في الموضعين معا يكادان يتطابقان. والأمر نفسه ينطبق على الفلاحة، حيث ينتفي الفارق بين البعد العلمي والصنائعي فيها[65].

وبالمثل فإن الفصل بين العلوم النقلية والعقلية لم يكن بيّنا، وإنما تداخلت فروع العلوم الشرعية بعلوم الفلسفة، بدليل أن علم الفرائض المختص بالمواريث، يدخل ضمن علوم النقل، غير أنه يجعله من فروع علم الحساب الذي يصنف في علوم التعاليم[66].

لقد حكمت النظرة الدينية موقفَ ابن خلدون من بعض العلوم العقلية؛ فرغم أهمية تصنيفه القائم على تقرير ما بلغته هذه العلوم في عصره حيث تحول إلى مؤرخ لها؛ فإنه يجعل علم الكيمياء وعلم النجوم ضمن علوم السحر مقللا بذلك من أهميتهما التاريخية والاجتماعية[67]، ولم يعتبر إلا ما أسماه بـ"علم الهيئة العام" باعتباره معرفة ترصد وتدرس حركات الكواكب والأفلاك بمنهج علمي لا أثر فيه للسحر والتنجيم، اللذين انتقدهما؛ فالأزياج "هي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك"[68].

إن ما حمل ابن خلدون على ذلك هو الأساس الموضوعي الذي أقام عليه تصنيفه للعلوم، مع تمييزه بين العلوم النقلية والعقلية من جهة، والعلوم النظرية والعملية من جهة أخرى.

لقد تحدث ابن خلدون عن اجتماعية العلوم أكثر ما صنفها أو تتبع تاريخها، انطلاقا من المشروع الذي أقام عليه "المقدمة"، والذي يتركز حول إشكالية التحول الحضاري وعلاقته طبائع العمران وتجدد العصبيات، والانتقال من "شظف العيش" إلى "رقة الحضارة" ومن "الحاجة" إلى "الترف" في المعاش بمختلف تجلياته الاجتماعية والفكرية. وهو ما جعله يعتبر

عصور الجديدة- المجلد7- العدد 27 صيف- خريف (أكتوبر) 1439هـ/2017- 2018م
ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014– Depot Légal 1156

العلوم من ضمن الصنائع، وأن هذه الأخيرة "إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش؛ فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنائع"[69].

تندرج العلوم لدى ابن خلدون إذاً في رؤيته للدورة الحضارية؛ فـ"العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري"[70]، ومرتبطة بالاجتماع الإنساني والحاجة إلى تطوير المجتمع، مما يفرض اكتساب العلوم وحذق تعلمها، بما يعتبر صنعة تمكّن من إدراك العلم وحصول "مَلَكَة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله"[71]. ولما كان التعليم متفاوتا، والملكات الصناعية غير متساوية بين الأمم، كان بديهيا أن يتباين مستوى العلوم حسب الحضارات؛ وذلك بأن "العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة"[72]. وهي قاعدة توحي بأن ابن خلدون يربط تصنيفه للعلوم ببعد تاريخي يجعلها متأثرا بالتحولات التي عرفها مجتمع الغرب الإسلامي إلى حدود القرن 8هـ/14م.

والخلاصة أن تصنيف العلوم في جناحي العالم الإسلامي مثل مبحثا ذا أهمية في بنية التأليف سواء بالمشرق وببلاد المغرب والأندلس؛ إذ شكلت الرؤية اليونانية للعلوم أسا جوهريا في تصنيفات المسلمين للمعرفة العلمية، التي تباينت بين التصنيف الفلسفي، والتصنيف البيبليوغرافي، والتأريخ للعلوم، والتصنيف العمراني.

الهوامش:

1- جلال الدين موسى، تصنيف العلوم عند العلماء المسلمين، مجلة المسلم المعاصر، بيروت، ع41، 1985م، ص. 11.---
2- محمد علي أبو ريان، تصنيف العلوم بين الفارابي وابن خلدون، مجلة عالم الفكر، الكويت، م9، ع1، أبريل- ماي- يونيو 1978م، ص. 98.---3- أحمد عبد الحليم عطية، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة، 1991م، ص. 17، 18. علي بو ملحم، مقدمة تحقيق إحصاء العلوم للفارابي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1996م، ص. 6، 7.---4- محمد علي أبو ريان، تصنيف العلوم بين الفارابي وابن خلدون، م. س، ص. 100.---5- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1985م، ص. 138.---6- الفارابي، إحصاء العلوم، (أبو ملحم)، م. س، ص. 15.---7- الفارابي، إحصاء العلوم، م. س، ص. 16.---8- أبو ريان، تصنيف العلوم، م. س، ص. 108. أحمد عبد الحليم عطية، دراسات في تاريخ العلوم، م. س، ص. 30- 31. جلال الدين موسى، تصنيف العلوم عند العلماء المسلمين، م. س، ص. 11، 12.---9- الفارابي، إحصاء العلوم، (أبو ملحم)، م. س، ص. 17- 25؛ 27- 48؛ 49- 65؛ 67- 77؛ 79- 92.---10- عن تلك المناظرة، راجع: محسن مهدي، مقدمة تحقيق كتاب الحروف للفارابي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة القديس يوسف ببيروت، دار المشرق، بيروت، ط2، 1990م، صص. 47- 49.---11- الفارابي، إحصاء العلوم، م. س، ص. 34، 35.---12- أبو ريان، تصنيف العلوم، م. س، ص. 101.-

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

--13- الفارابي، تحصيل السعادة، تحقيق علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1995م، صص. 83- 99.---14- الفارابي، رسالة التنبيه على سبيل السعادة، تحقيق سحبان خليفات، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ط1، 1987م، ص. 220، 221.---15- أبو ريان، تصنيف العلوم، م. س، ص. 108، 109.---16- أحمد عبد الحليم عطية، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، م. س، ص. 31.---17- ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق رضا تجدد، طهران، 1971م، ص. 3.---18- إحسان عباس، مقدمة تحقيق رسائل ابن حزم الأندلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2007م، ج4، صص. 7- 18.---19- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي/دار الحرمين للطباعة، القاهرة، 1414هـ/1994م، ج2، ص. 788.---20- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، م. س، ص. 164، 165.---21- ابن عبد البر، جامع بيان العلم، م. س، ج2، ص. 46.---22- نفسه، ج2، ص. 792.---23-إحسان عباس، مقدمة تحقيق رسائل ابن حزم، م. س، ج4، ص. 12.---24- ابن حزم، التقريب لحد المنطق، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، م. س، ج4، ص. 348.---25- نفسه، ج4، ص. 349.---26- نفسه، ج4، ص. 102.---27- نفسه، ج4، ص. 349.---28- نفسه، ج4، ص. 350.---29- نفسه، ج4، ص. 348.---30- إحسان عباس، مقدمة تحقيق رسائل ابن حزم، م. س، ج4، ص. 25، 26.---31- ابن حزم، مراتب العلوم، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، م. س، ج4، ص. 78.---32- نفسه، ج4، ص. 72.

33- R. Blachère, «Une source de l'histoire des sciences chez les arabes, LesTabakat al-Umam de Sã'id al-Andalusi», Hesperis 8, (3e- 4e Trimestre), 1928, pp. 357- 361.

34- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، م. س، ص. 33، 39، 40.---35- نفسه، ص. 41، 42.---36- **نفسه**، ص. 113. 37- **نفسه**، ص. 117.---38- نفسه، ص. 120، 121.---39- نفسه، ص. 122، 125، 126.---40- نفسه، ص. 155، 156.---41- نفسه، ص. 156، 157، 158.----42- نفسه، ص. 159.---43- ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1405هـ/1985م، ص. 97، 98.---44- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م، ج1، صص. 200- 202.---45- ابن جلجل، طبقات الأطباء، م. س، ص. 95.---46- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، م. س، ص. 163، 164. ---47- نفسه، ص. 164.---48- ابن حزم، التقريب لحد المنطق، م. س، ج4، ص. 98، 99.---49- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص. 164. ---50- نفسه، ص. 164، 165. ---51- نفسه، ص. 179، 180.---52- نفسه، ص. 165.---53- نفسه، ص. 179، 181، 185، 199.---54- نفسه، ص. 180.---55- نفسه، ص. 185، 186. ---56- نفسه، ص. 199.---57- ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص. 482.---58- نفسه، ص. 483.---59- نفسه، ص. 483، 484.---60- نفسه، ص. 479، 482، 484.---61- نفسه، ص. 529.---62- نفسه، صص. 529- 567.---63- نفسه، ص. 530.---64- تنقسم الفنون السبعة إلى قسمين: الطرق الثلاثية "Trivia" وهي النحو والجدل والخطابة، والطرق الأربعة "Quadrivia" وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك. ويلاحظ أن هذا التصنيف لم يدرج الطبيعة لأنها تدخل ضمن علم الهيئة. أحمد عبد الحليم عطية، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، م. س، ص. 28- 29.---65- ابن خلدون، المقدمة، ص. 450، 457، 460، 545، 546.---66- نفسه، صص. 500- 530.---67- نفسه، صص. 549- 567.---68- نفسه، ص. 530.---69- نفسه، ص. 481.---70- نفسه، ص. 476.----71- نفسه، ص. 477.---72- نفسه، ص. 481.